عامر محمد نزار جلعوط
ماجستير في الاقتصاد الإسلامي

الوزير العباسي علي بن عيسى بن الجراح

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا الأمين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن سار على دربهم وتمسك بهديهم إلى يوم الدين وبعد:

لقد برع علماء هذه الأمة في مختلف فنون العلوم التي احتاج الناس إليها، ولمع نجم رجال في الاقتصاد الإسلامي بنيلهم النجابة والفطانة والأمانة في إدارة مناصب عالية في الدولة الإسلامية ومن بين هؤلاء الوزير العباسي الوزير علي بن عيسى بن الجراح، فمن هو ابن الجرّاح؟ وما هي المكانة العلمية العملية التي حازها في تاريخ هذه الأمة؟

(١) من هو ابن الجرّاح :

×اسمه: الإمام المحدث الصادق الوزير العادل أبو الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح البغدادي الكاتب.

× مولده: ولد سنة نيف وأربعين ومئتين وفصل ذلك بعضهم بأنه سنة ٢٤٤هـ.

× صفاته:

١. كثير التلاوة والصيام والصلاة يحب أهل العلم ويكثر مجالستهم.
٢. صبوراً على المحن ولله به عناية وهو القائل:(مصيبة قد وجب أجرها خير من نعمة لا يؤدى شكرها).
٣. كثير الصدقات والصلوات، قال أحمد بن كامل القاضي : سمعت علي بن عيسى الوزير، يقول: كسبت سبع مئة ألف دينار.أخرجت منها في وجوه البر ست مئة ألف وثمانين ألفا.
٤. من بلغاء زمانه وكيف لا يكون له ذلك وهو إمام محدث!؟
٥. غنيا شاكراً، ينطوي على دين متين وعلم وفضل.
٦. متواضعا، قال: ما لبست ثوبا بأزيد من سبعة دنانير.

× مصنفاته : صنف كتابا في الدعاء وكتاب "معاني القران "وله ديوان رسائله وكتاب "سياسة المملكة وسيرة الخلفاء"

× وفاته :جاور مكة في آخر حياته، توفي في آخر سنة٣٣٤هـ وله تسعون سنة، وذكر بعضهم أنه توفي ببغداد.

(٢) ابن الجراح ووزارة المال:

لم يكن له في زمانه نظيراً في علمه الإداري المالي الذي اشتهر به، فحاز على وزارة المال لبني العباس مرتين وأحصي له أيام وزارته نيف ثلاثون ألف توقيع من الكلام السديد:

× وزر غير مرة لبني العباس في عهدي المقتدر والقاهر في المحرم سنة إحدى وثلاث مئة وبقي فيها أربع سنين غير شهرٍ. وعز لبناء على طلبه.

× ثم وزّر سنة خمس عشرة،في ذي القعدة، وبقي فيها سنةً وأربعة أشهرٍ ويومين، حيث عزل المقتدر أبا العبّاس الخصيبيَّ عن الوزارة.وكان سبب ذلك أنّ الخصيبيّ أضاف إضافة شديدة، ووقفت أمور السلطان لذلك، واضطرب أمر الخصيبيّ. الذي كان لاهياً مهملاً لأمور الوزارة فعُزل وأرسل المقتدر بالله إلى دمشق يستدعي عليَّ بن عيسى، وكان بها. فسار الأخير إلى بغداد، فقدمها أوائل سنة خمس عشرة، واشتغل بأمور الوزارة، ولازم النظر فيها، فمشت الأمور، واستقامت الأحوال.

× ولما عُزل ثانيا ابن الجرّاح، لم يقنع الوزير ابن الفرات حتى أخرجه عن بغداد، فجاور بمكة حتى وفاته.

١. قال المحدث أبو سهل القطان : كنت معه لما نفي بمكة فدخلنا في حر شديد وقد كدنا نتلف، فطاف يوما، وجاء فرمى بنفسه، وقال: أشتهي على الله شربة ماء مثلوج. قال: فنشأت بعد ساعة سحابة ورعدت، وجاء برد كثير جمع منه الغلمان جرارا.وكان الوزير صائما، فلما كان الإفطار جئته بأقداح من أصناف الاسوقة فأقبل يسقي المجاورين، ثم شرب وحمد الله، وقال: ليتني تمنيت المغفرة.

٢. قال الصولي : لا أعلم أنه وزر لبني العباس مثله في عفته وزهده وحفظه للقرآن، وعلمه بمعانيه، وكان يصوم نهاره، ويقوم ليله، وما رأيت أعرف بالشعر منه، وكان يجلس للمظالم، وينصف الناس، ولم يروا أعف بطنا ولسانا وفرجا منه.

(٣) ابن الجرّاح والإصلاح المالي:

وسبب الإصلاح المالي هو التخريب المالي الذي حدث في عهد من سبقه الوزير أبي العبّاس الخصيبيّ الذي :

- كان يترك الكتب الواردة إلى الدواوين لا يقرأها إلاّ بعد مدة ويهمل الأجوبة عنها.
- وكَل الأمورَ إلى نوابه، وأهمل الاطلاع عليها، فباعوا مصلحة الوزارة بمصلحة نفوسهم، فضاعت الأموال، وفاتت المصالح.

ولما جاء الوزير ابن الجراح أشار على الخليفة المقتدر، فأفلح، فوقف ما كان غلته في العام تسعون ألف دينار على الحرمين والثغور، وأفرد لهذه الوقوف ديوانا سماه ديوان البر.

وكان ابن الجرّاح يريد أن ينقذ الوضع المالي للدولة في العصر العباسي بعهد الخليفة المقتدر، فنظر إلى الشعب الذي كان يئن من ظلم الكتّاب حيث انتشرت الرشوة ولا يقوم كاتب بالعمل إلا إذا أخذ الرشوة فقام بما يلي :

× تولّى الأعمال بنفسه ليلاً ونهاراً، واستعمل العمال أصحاب الكفاءة.

× منع الرشوة ومنع الفساد.

× نظر علي بن عيسى في ضمانات العمّال بما ضمنوا من المال بالسواد، والأهواز، وفارس، والمغرب، وأرسل في طلب تلك الأموال، فأقبلت إليه شيئاً بعد شيء، فأدّى الأرزاق، وأخرج العطاء.

× كان له ديوان يسمى ديوان المرافق، ونظر في شكوى المتظلمين.

× قلل من النفقات حيث:

١. أسقط النفقات لمَن لا يحمل السلاح من الجند.
٢. أسقط من أولاد المرتزقة من هو في المهد، حيث كان آباءهم قد أثبتوا أسماءهم.
٣. ألغى من أرزاق المغنّين، والندماء ، وغيرهم.

× ألغى بعض الضرائب، واستطاع أن يُكفي الدولة من دخلها، حيث اعتمد نظاماً ماليا كان أول من أوجده فلم يتعرض لبيت مال الخليفة ولم يصادر أموال الكتاب الذين منعهم من الرشوة.

× أوجد أسلوباً لدفع الرواتب حيث تعاقد مع اثنين من أثرياء اليهود على أن يسلفا الدولة الأموال التي ترغب فيها، ومالهما مضمون مقابل دخل الدولة وأرباحها وضرائبها، ولهما أرباح يحصلان عليها مقابل هذه السلفة، فأصبح كبار التجار يتقدمون ويسلفون الدولة المال بعد أن اطمأنوا لقوة الدولة.

× اطمأن الناس إليه لأعماله السابقة وعمروا المساكن والأراضي والمتاجر وازدهرت الحياة الاقتصادية، لكن ابن الجراح لم يستمر في الوزارة بسبب تدخل نساء الخليفة ثم عاد مرة أخرى فوجد سبب الاضطراب أن الدولة تنفق مالها دون معرف إيرادها فعمل على ما يلي:

١. منع كل إنفاق يخالف تقدير (الميزانية) وكان يسمى بالجريدة، وكان يعرف كل أسبوع دخل الدولة وإنفاقها.٢- حاول أن يخفف من النفقات (الرواتب وغيرها) كما سبق فتحسنت الأمور واعتدلت الميزانية.

إلا أن الخليفة العباسي المقتدر وجد نفسه مضطراً أن يزيد لكل جندي ديناراً فاضطربت الميزانية فترك ابن الجراح الوزارة، ثم جعل له النظر في الدواوين سنة ٣١٨ ثم عزل فرحمه الله من وزير وإمام ومحدث وعابد وزاهد وعَلم لهذه الأمة.

المراجع:

١. سير أعلام النبلاء للذهبي جـ١٥ ص٢٩٩، البداية والنهاية لابن كثير جـ١١ ص ٢١٧.
٢. أحمد بن كامل بن شجرة القاضي البغدادي الحافظ،كان من العلماء بأيام الناس والأحكام وعلوم القرآن والنحو والشعر وتواريخ أصحاب الحديث ولد سنة ستين ومائتين ومات في المحرم سنة خمسين وثلاث مائة. لسان الميزان لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني جـ١ ص٢٤٩.
٣. الأعلام خير الدين الزركلي جـ٤ ص٣١٧.
٤. الوافي بالوفيات للصفدي.
٥. المقتدر أبو الفضل جعفر بن المعتضد لم يل الخلافة اصغر منه (٢٩٥هـ - ٣١٩هـ)
٦. أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن الخصيب أبو العباس الكاتب الخصيبي، ولي الوزارة للمقتدر سنة ثلاث عشرة وثلاث مائة والدواوين وخلع عليه ثم عزل سنة أربع عشرة وثلاث مائة، ثم ولي الوزارة للقاهر بن المعتضد سنة إحدى وعشرين ولم يزل على الوزارة إلى أن خلع القاهر سنة اثنتين وعشرين وثلاث مائة. وكان أنعم الناس عيشاً وأنفذهم أمراً يحكم على الوزراء ويضطرون إلى مداراته شغب عليه الجند وطالبوه بالأرزاق وصارت حوادث الشغب إلى باب داره.
٧. تاريخ دمشق لابن عساكر جـ٢٣ ص١٢١.
٨. أبو سهل القطان الإمام المحدث الثقة، أحمد بن محمد بن عبد الله بن زياد بن عباد. القطان البغدادي. وكان مولده في سنة تسع وخمسين ومائتين.
٩. توفي في شعبان سنة خمسين وثلاث مئة. سير أعلام النبلاء للذهبي جـ١٥ ص٥٢١.
١٠. أبو بكر محمد بن يحيى المعروف بالصولي الشطرنجي؛خالط ثلاثة من خلفاء بني العباس، هم: الراضي، والمكتفي، والمقتدر. وكان أحد الأدباء الفضلاء المشاهير.توفي سنة خمس وثلاثين وثلاث مئة.عن وفي اتا لأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان جـ٤ ص٣٥٦.
١١. ينظر في الكامل ابن الأثير، وزارة علي بن عيسى.
١٢. فقه الموارد العامة عامر محمد نزار جلعوط ص١٠٣. مكتبة معهد الدعوة الجامعي- بيروت.
١٣. النَّدامى جمع نَدْمانٍ وهو النَّديمُ الذي يُرافِقُك ويُشارِبُك.